أعلام الأدب

دراسات سوفوكليس

للأستاذ دريني خشبة

حدّد سوفوكليس الفرق بينه وبين إسخيلوس ، ثم بينه وبين يوريبيدز فقال :

أنا أصور البشر كما كان ينبغي أن يكونوا

ويصورهم يوريبيدز كما هم

أما إسخيلوس فقد كان يوحى إليه بالحق فينطق به دون أن يعرف ما هو

وذلك من سوفوكليس تحديد جميل ينتفع به مؤرخو الأدب الكلاسيكي ، لأن سوفوكليس كان حقيقةً يلتزم في جميع دراماته هذا التسامي نحو مَثَله الأعلى الذي كان يجهد ألا يضحي به ولو عارض الأوضاع ونافى التقاليد وثار بالشرائع

لقد رأى إسخيلوس يقسو على الفتى أورست الذي قتل أمه لأنها قتلت أباه فأسلمه لطائف من الجنون ، وسلط عليه ربات العذاب تُشقيه وتقص آثاره وتسد عليه المسالك . لأن جريمة قتل الوالدين هي أشنع الجرائم فيما تواضع عليه الدين اليوناني الأسطوري من غير نظر إلى ما في ذلك القتل من حق أو غيره ... ومع أن إسخيلوس كان لا يرى أن يُعد أورست مجرماً بدليل ما ذكره على لسان أبولو أمام محكمة ميزفا إلا أنه أجرى درامته في حدود المعتقدات اليونانية فجعل ربات العذاب تلاحق أورست كما تلاحق المجرمين لتأخذه بما جنت يداه . ثم توسل إسخيلوس بهذه الهيئة القضائية التي كانت ميزفا بمقام الرئيس فيها ، كما كان أبوللو بمقام المحامي ، وكما كانت ربات العذاب بمقام المدعي في حين كان أورست في مقام المتهم ... فلما رأت ميزفا أخذ أصوات الحضور بوصف كونهم محلفين ، ثم لما تساوت الأصوات ضد أورست تم له ، عمد إسخيلوس إلى ميزفا فجعلها تنحاز إلى جانب أورست ، وبالأحرى إلى فكرة إسخيلوس في عدم جميان الفتى مجرماً لأنه قتل أمه التي قتلت هي أيضاً أباه ، لأنه ضحّى بابنتها إفجنيا كما تقدم ذكر ذلك جميعاً

رأى سوفوكليس هذه القوى يتناول المأساة على هذا النحو فترك سبيله وسلك سبيلاً آخر . . . إنه لم يُسلم أورست لطائف من الجنون ولم يُلاحقه بربات العذاب كما فعل إسخيلوس ، بل هو قد أهمل الشريعة الأسطورية كلها وأظهر أورست في ثوب البطل الذي يرى أن أمه قتلت أباه بغير الحق وصَبَت قبل ذلك إلى عشيق مجرم من أعداء أسرته وآذت أبناءه وأهدرت كرامتهم فهي لكل ذلك تستأهل أن تقتل ، بل يجب أن تقتل بيد ابنها ، فإذا هم ابنها بقتلها وتوسلت إليه بدموعها مرة وثديها مرة أخرى خشيت (إلكترا) — وهذا هو اسم الدرامة — أن يضعف أخوها أو أن يستخذي لخضته على قتل أمه — وأمها — « لأنها لم ترحم أحداً من قبل ! »

وهكذا صور سوفوكليس الناس كما ينبغي أن يكونوا ، ولم يلف طويلاً كما صنع إسخيلوس ... أما كيف اتقى ثورة الناس لإهماله شريعتهم الأسطورية فقد كانت حجته أن في الأساطير ما يذكر أن ديانا قد أنقذت الفتاة إفجنيا من الذبح وذلك بفدائها بذبح عظيم على نحو ما نعرف من قصة إبراهيم وولده إسماعيل ... لذلك كان حنق كليتمنسترا في غير موضعه ، وكان باطلاً كل ما كانت تبرر به مسلكها نحو زوجها ، وكل ما ترتب على هذا المسلك من نتائج

وليس من عيب في مأساة إلكترا إلا ما ألقمه فيها سوفوكليس على لسان الرسول من وصف الألعاب البيثية وصفاً طويلاً يُفضي إلى الإملال .

٢ — أجاكس[1] :

قد تكون مأساة أجاكس أقدم ما وصلنا من درامات سوفوكليس سليما كاملا . . . وهي مثل إلكترا يصادفك فيها العجب المطرب من الفكر الرائع والفن البارع ، كما يصادفك المشهد السمج والحوار الثقيل خصوصاً إذا كان ذاك المشهد أو هذا الحوار فيما يتعلق بتقليد يوناني تطاول عليه العهد فلم يعد سائغاً عندنا اليوم

(١) هكذا ينطق اسم هذا البطل في الأليادة والأودية وجميع تراجم سوفوكليس وقد أورده كامبل على أنه (ايلس) ولم ندر علام اعتمد في إيراده على هذا النحو

بعد مقتل أخيل بطل أبطال اليونانيين اتفقت الآراء على أن تُمنح درعه وعدته الحربية التي صنعها له فلكان الحداد إله النار لأشجع الأحياء من أبطالهم المحاربين ، وبالرغم من أن أجاكس كان أشجعهم جميعاً فقد رأى القضاة أن يخلعوها على أودسيوس لأنه كان إلى شجاعته أبرع اليونانيين حيلة وأكثرهم حكمة . . وكان ينبغي أن يخضع أجاكس لهذا الحكم ، إلا أنه ثار وتولاه الغضب واعتزم أن يقتل القضاة الظلمة الذين جرحوا كبرياءه بما فضلوا عليه أودسيوس . . . لكن أثينا (ميزرفا) التي كانت تحابي أودسيوس دائماً ، لم تدعه يفعل ، بل أسلمته لطائف من المس وفورة من الجنون ، فامتشق سيفه وراح يقتل قطعان الشاء والنعم وهو يحسب أنه يقتل أعداءه القضاة من قادة الإغريق . . . ثم يفيق أجاكس ويعلم ما كان من أمره ، وينظر إلى نفسه فيراه رجلاً لم تعد له كرامة بين عشيرته ، ويرى الجميع يصدون عنه . . . فيألم ويضيق بحياته ، ويزيده ألماً ما ظن من حنق أثينا عليه ، وما عرف من تحقيره أمته الجميلة تكماسا ، فينطلق إلى مكان موحش مهجور عند شاطئ البحر ، ثم يتكئ بصدره على سنان سيفه ، فيسقط على الرمال ويتشحط في دمه . . . ويجتمع القادة حول جثمانه فيختلفون ساعة على دفنه ، لكن أودسيوس ينسى سخيمته ، ثم يتولى الدفاع عن عدوه في عبارة كلها تمجيد له واعتراف بفضائله ، فلا يسع الباقين وفي مقدمتهم منالوس إلا أن يوافقوا على الدفن وإقام الشعائر الدينية على جدثه . . . ويقع ثلث المأساة تقريباً بعد انتحار أجاكس ، وهذا عيب درامي وقع فيه سوفوكليس حين غلبه الشاعر المستكن فيه على الدرامي الذي هو أروع نواحي شخصيته العجينة العظيمة . . . وتمتاز هذه الدرامة بالكلمات الجميلة الخلابة التي كان يتبادلها الزعماء فوق جثمان أجاكس ، ثم موقف أودسيوس منه بعد انتحاره . . . ثم هذه النجوى وذاك الوداع الذي فارق بهما أجاكس دنياه وهو يشحذ سيفه وجعلهما آخر أنفاسه . . . على أن أثر إسخيلوس واضح جداً في هذه المأساة التي صور فيها الشاعر صراع الإنسان ضد المقادير وما يلقى في تمرده على القضاء من شقاء . . .

٣ — أنتيجوني (٤٤٥ ق . م)

تعتبر مأساة أنتيجوني أجمل فرائد سوفوكلس ، وقد نظمها سنة ٤٤٢ . وتكاد تكون الحلقة الرابعة في ثلاثية إسخيلوس التي ثالثها (سبعة ضد طيبة) . فقد شهدنا كيف تبارز الشقيقان : إتيوكليز ، وپولينيسيز ، وكيف قتل كل منهما الآخر في مأساة إسخيلوس . هنا ينهض بالملك الطاغية كريون أخو الملك أوديب غير الشقيق ، وتكون مهمته شاقة لأنه يلي أمر مملكة منهوكة جائعة حزبتها الحرب التي أثارها پولينيسيز ، والتي استعان فيها على وطنه بجيوش الأجانب مما جعل مواطنيه ينقمون عليه ويبغضونه أشد البغض . من أجل هذا احتفل كريون بجناز إتيوكليز وإقام الشعائر الدينية على جدثه . ثم أمر في الوقت نفسه أن يترك جثمان پولينيسيز منبوذاً بالعراء تنوشه الجوارح ، وتغتذى به بواشق الطير وجياع السباع . لكن الفتاة أنتيجوني تسخر بأوامر الملك وتعرض نفسها للمهالك حيث تذهب إلى جثة أخيها فتحثو عليها التراب وتدفنها وتؤدي لها شعائر الدين التي لا تستقر أرواح الموتى إلا بعد أدائها . هنا تثور ثائرة الملك ، ويأمر بالقبض على الفاعل الذي استهزأ بقوانين الدولة ؛ فلما يعلم أن أنتيجوني هي التي أتت هذا الأمر لا يبالي أن يأمر بدفنها حية بالرغم من أنها مخطوبة لولده هايمون الذي يحبها ويهيم بها ويعبدها عبادة . ويحضر الابن فيجادل أباه في محبوبته ، بل معبودته ، لكن الرجل ينسى كل شيء إلا أنه ملك . فينصرف هايمون بعد أن ينذر أباه أنه لن يراه بعد اليوم ، ويذهب فينتحر عند باب القبو الذي دفنت فيه أنتيجوني . ثم تنتحر أمه عندما يأتيها نعيه ، تلك الأم الرءوم المعذبة التي فقدت ولدها ميجاريوس من قبل ، إذ ضحاه أبوه من أجل سوالح الوطن . ويتلفت كريون فيراه وحيداً في هذه الحياة العبوس الجانحة ، يبكي قلبه من غير أن ينفعه أنه حفظ سلطان القانون فيتمنى ، ولن ينفعه التمني ، لو أنه سمع لنصيحة الكاهن الذي محضه النصح أن يترفق بولده حتى لا يصب الويلات على رأسه

لقد كان سوفوكليس فناناً عظيماً في هذه المأساة الخالدة . . . لقد صور فيها شخصيات رائعة لم تظفر بمثلها درامة في تاريخ المسرح . . . فهذه هي أنتيجوني العنيدة الصارمة التي لا تبالي سلطان الملك وجبروت الدولة ، وهذه أختها إسمنيه الضعيفة الساذجة المضطربة التي لا تقر أختها على فعلتها ، ولا تنكث بها مع ذاك . . . وذاك الفتى هايمون الذي يجادل أباه بالحق والمنطق ، فلما يعييه إقناعه يرخص الحياة بعد عروسه ويتخلص منها غير باك عليها ، وهذا

كريون الملك الذى يتغطرس ويغلو فى غطرسته، لكنك لا تستطيع مع ذاك إلا أن تعجب به بسمته حاكما ، ولا ينبغى أن يكون الحاكم إلا صلباً لا يبالى غير الحق ولا يتهاون فى شأن من شئون السلطان ... ثم أولئك المنشدون (الخورس) الذين يحبذون أنتيجونى حين تصرح أنها لم تأت منكراً حينما دفنت أخاها ، ويرثون لها يمون العاشق حين يحاول إقناع الملك بخطل سياسته فلا يقتنع ، فى حين لا يتقبلون الملك حين يشتط فى التمسك بأوامره ووجوب معاقبة الخارجين عليها لأنهم يكونون خوارج على الدولة ...

هذا إلى فن سوفوكليس وروعة أسلوبه الذى يقول فيه جيته :

« إن كل شخصيات سوفوكليس قد أوتوا نعمة الفصاحة ، وجمال البيان ، فهم أبداً مداره ألباء يعرفون كيف يسوقون حججهم ويقيمون براهينهم بحيث يكون السامع إليهم فى صف المتكلم الأخير منهم دائماً ! »

٤ — أديبوس تيرانوس (أوديب الملك)

عرضنا خلاصة هذه المأساة فى إسخيلوس عند ما لخصنا (سبعة ضد طيبة)[1]. ودرامة سوفوكليس تتناول حياة أوديب بعد أن رق أريكة الملك ثم تتسلسل الحوادث حتى يعرف السر الهائل : أنه قتل أباه وأنه تزوج من أمه وأنه أولدها أبناءه جميعاً .. وأروع مشاهد المأساة ذلك المنظر الذى يعترف فيه كل من أوديب وأمه أحدهما للآخر عن الماضى المؤلم المشجى. ثم تلك النهاية التى تقتل الأم فيها نفسها ، ويسمل الابن عينيه . وبالرغم من روعة المأساة وسموها الفنى قد لاحظ عليها النقاد ضعفاً فى الحبكة الدرامية ، إذ كيف يسيغ الذوق الدرامى أن يتزوج شاب قوى فتى جميل مثل أوديب امرأة عجوزاً شمطاء تكبره مرتين أو أكثر من مرتين مثل أم هذا الفتى ! ؟ ليس فى تاريخ الجمال اليونانى ما يسيغ هذا الوضع وخصوصاً على المسرح . وقد اعتذر أرسطو عن ذلك بأنه عيب يضيع فى روعة حوادث المأساة وجمال تسلسلها وشدة أسرها ... ثم لماذا تنتحر الأم ولا ينتحر أوديب ؟ لماذا يكتفى بأن يسمل عينيه ويعيش بقية حياته أعمى فى تيه الغابات ؟ ! يعتذر أرسطو لذلك أيضاً بأن الأسطورة كانت مشهورة قبل سوفوكليس فلم يشأ أن يتناولها بالتبديل والتحوير ، ويرد على ذلك بأن سوفوكليس كان يصور الناس والحوادث بما كان ينبغى أن يكون فلِمَ لم يطبق قاعدته على مأساة أوديبوس ؟!

٥ — هرارى تراشينيا[1]

لا ندرى لماذا أطلق سوفوكليس ذاك الاسم على مأساته هذه إلا أن تكون قد حدثت هنالك ... وكان الأحرى أن يسميها ديانيرا أو مقتل هرقل

يعترض طريق هرقل فى إحدى مغامراته نهر عظيم لا يستطيع أن يعبره وتكون معه زوجه الجميلة الفتان ديانيرا فيبدو لهما سنتور عظيم ويعرض أن يحملهما إلى العدوة الأخرى ... وتركب ديانيرا على ظهر السنتور ويخوض بها فى اليم فيحس نحوها بغرام شديد فيعتزم أن يهرب بها من هرقل ، فلما يبلغ العدوة الأخرى ينطلق بها فتصرخ فينتبه هرقل فيرسل أحد سهامه المسمومة بدماء هيدرا فيخترم السنتور ... وقبل أن يموت السنتور يهب ثوبه لديانيرا فتفرح به لأنه كما زعم لها يرد إليها محبة زوجها إذا تحول عنها قلبه بشرط أن يلبسه ... وتحتفظ ديانيرا بالثوب سنين عدداً ثم يمضى هرقل فى إحدى مجازفاته فتعلم أنه صبا إلى جبيبة شبابه وخليلته الأولى فتضطرم الغيرة فى قلبها وتذكر ثوب السنتور ، ثم ترسل أحد خدمها ليلقى هرقل وليقدم له ثوب السنتور فيلبسه (لأنه يعيد إليه ما خار من قواه فى مجازفاته الشاقة) ، وما يكاد هرقل يلبس الثوب حتى يسرى سم السنتور فى جسمه فيعذبه ويضنيه حتى يموت ... وتعلم ديانيرا بموت زوجها فتعرف حقيقة الثوب وأن السنتور إنما أراد أن ينتقم من هرقل لأنه قتله فتحزن ثم تنتحر

فى هذه المأساة والمأساتين التاليتين نلحظ تبدلاً فى سوفوكليس ونرى أنه تأثر بالشاعر الشاب يوريبيدز .. ثم نلحظ ضعفاً فى الحبكة الدرامية سببه الهرم وتقدم السن، فقد نظمها بعد الثمانين وفى عصر تقلقل وصراع بين أثينا وأسپرطة

(١) ٢٩٩ ص ٦٢٠

(١) جهة فى أقصى جنوب تساليا وحاضرتها تراشين (كرامرج — ١ ص ٤٤١ — فهى غير تراقيا)

٦ — فيلوكتيتس (٤٠٩ ق.م)

عند ما حضرت الوفاة هرقل منح سهامه المسمومة لرصيفه البطل فيلوكتيتس الذى صحب اليونانيين فى حملتهم على طروادة ... لكن أفعى لدغته فى رجله فى جزيرة لنوس ، وأحدثت بها جرحاً بليغاً سبب له ألماً شديداً ، وخشى المحاربون أن يكون سبباً فى طاعون يذهب بريحهم فتركوا البطل المسكين وحيداً فوق الشاطئ ثم أبحروا إلى طروادة ... واستمرت الحرب عشر سنوات سجالاً بين الفريقين ، ثم جاءتهم نبوءة أن طروادة لا تسقط إلا إذا حضر الحرب فيلوكتيتس ومعه سهام هرقل . . فذهب البطل أودسيوس ومعه البطل نيوبتوليموس بن أخيل إلى حيث ثوى فيلوكتيتس ليحتالا عليه فيحضر معهم إلى طروادة بسهام هرقل ... وقد شق على البطل أن يفعل وعز عليه أن يصحب قوماً أهملوه فى كربته وغادروه وراءهم وهو فى شدة الحاجة إلى معونتهم ، وكان جرحه ما يزال يؤلمه ويبرح به ... لكن شبح هرقل يبدو له فى شبه حلم وينصح له بالذهاب إلى طروادة لنصرة قومه ، ولأن هناك الطبيب ماشيون الذى يستطيع مداواة جرحه فيهش فيلوكتيتس وينهض من فوره ، ويمضى إلى طروادة... وحل عقدة الدرامة على هذا النحو يدلنا على مبلغ تأثر سوفوكلس بيوريبيدز

٧ — أوديبوس فى كولونوس[1]

لا ندرى لماذا عاد سوفوكليس فجأة وبعد نصف قرن تقريباً إلى مأساة أوديب ؟ لعله أراد أن يرد على أرسطو قبل أن يولد (٣٨٤ — ٣٢٢) ، كما أراد أن يقول لماذا لم ينتحر أوديب كما انتحرت أمه !

بعد أن سمل أوديب عينيه نفاه كريون باتفاق بينه وبين ابنيه المتنازعين على العرش مما جعل أوديب يرسل لعنته على ولديه ... وذهب الملك الأعمى ليأوى إلى الأحراج والكهوف فتبعته ابنته أنتيجونى لتعينه وتقوده وتسليه ، وكانت ابنته الثانية إسمنيه تختلف إليه فى الخفاء لتنهى إليه أسرار طيبة ... وتمضى السنون ... ثم تقول نبوءة إن أوديبوس إذا مات فى أرض أجنبية واشتملت جثمانه تلك الأرض فإنها لا تلبث أن تعزو طيبة وتنتصر على أهلها . . ويذهب أوديبوس على وجهه فى الأرض ، تقوده أنتيجونى حتى يأتيا أحراج يومينيدز أو ربات اللطف والرحمة[1] فما يكاد

(١) كولونوس هى إحدى ضواحى أثينا

الملك يمس بقدمه أرضهن حتى يشيع فيه إحساس الرضى والشعور بالراحة فيعلم أن الربات قد عفون عنه وغفرن له ذنبيه العظيمين : قتل أبيه وزواجه بأمه . ثم تأتيه بذلك النبوءة ، وتشمله حماية الربات ، ويتلقاه ثيذيوس عظيم كولونوس فيكرم مثواه ويعطيه عهده على أن يحميه ضد ولده وضد كريون على السواء ... وهكذا تنتهى آلام هذا الرجل التعس ، وتعود إليه طمأنينته بعد أن كفر عن ذنبه ...

والمأساة لا عقدة لها ، بل هى سلسلة من الآلام عرضها سوفوكليس عرضاً جميلاً رائعاً ، واستجمع لها رصانة الأسلوب ودقة الأداء وفتنة الفن ... وقدمات سوفوكليس ولم يشهد مأساته تمثل ، وقد تولى إخراجها حفيده المسمى باسمه فجمع لها قدسية الأكروبوليس وشدو البلابل وعظمة أثينا التى حطمتها أسبرطة

وبعد، فهذا عرض سريع مقتضب لا يغنى عن قراءة الأصول شيئاً .

دريني خشبة

(١) من ربات العذاب وقد صيرتهن هكذا مينرفا بعد قضية أورست

الافصاح فى فقه اللغة

معجم عربى : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب ، ثمنه ٢٥ قرشا يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه:

حسين يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدى

هل يفرز كبدك

لترا واحداً من الصفراء كل يوم

إذا نهضت قويا نشيطا فى الصباح فذلك دليل على أن كبدك قائم بوظيفته . ووظيفته هى أن يفرز الصفراء التى تذهب الى المعدة والأمعاء فتسهل عملية الهضم . واذا لم يفرز الكبد هذه الكمية من الصفراء عقبه الامساك الذى لا تنفع فيه المسهلات لأن العلة فى الكبد لا فى الأمعاء خذ حبوب لفركيور (شفاء الكبد) تحضير معامل الن وهنريس فى لندن